الاتجاهات الحديثة
في دراسة التاريخ

للدكتور جواد علي
سكرتير المجمع العلمي العراقي

تحتل نظرية التطور « Genetic » مكاناً بارزاً بين النظريات التاريخية ، وقد تقوى مركز هذه النظرية بعد تطور مفهوم التاريخ ، وظهور ما يسمى بفلسفة التاريخ . وقد ابتدع هذا الاصطلاح الفيلسوف الفرنسي الشهير « فولتير » « Voltaire » الذي كتب بحثاً طريفاً في عام ١٧٦٥ ، تناول فيه عادات ونفسيات الشعوب ، والحضارة البشرية بصورة عامة ، وفلسفة التاريخ الإنساني العام ، وجعل عنوان هذا البحث « la Philosophie de l ' histoire » أو « فلسفة التاريخ » ومنذ هذا العهد شاع هذا الاصطلاح حتى أصبح عنواناً لموضوع دراسة قائمة بحد ذاتها ، ومذهباً من مذاهب التاريخ .

وخلاصة نظرية فولتير أن التاريخ البشري عبارة عن كفاح مستمر نحو عالم أرقى وبشرية أسمى ، وتطور دائمي نحو عالم أكمل ، أي أنه سار مع أصحاب نظرية التطور ، وسار المتفائلين على الرغم من روح التشاؤم التي عرف بها هذا الفيلسوف . وقد استخدم الفيلسوف الألماني « هيردر » « Herder » هذا الاصطلاح الذي أوجده فولتير في كتابه القيم الذي سماه « آراء في فلسفة التاريخ الإنساني » وشاع منذ هذا الحين بين الألمان ، ثم انتقل إلى سائر اللغات الأوربية الأخرى .

وشاعت « فلسفة التاريخ » في أوربا وحاول أصحاب هذه الدراسة وضع قواعد وأسس كالتي نراها في العلوم الطبيعية لتحويل التاريخ إلى علم مثل سائر العلوم ؛ حتى طغت على الطريقة المألوفة في كتابه التاريخ العام ، وظهر منهم من رأى وجوب إخضاع « التاريخ العام » لقواعد فلسفة التاريخ ، وتحويل « التاريخ » إلى فرع من فروع الفلسفة أو طريقة من طرق « علم النفس » بحيث يتمكن بواسطته من الإطلاع على النفس البشرية وروحية الإنسانية منذ عرفت إلى ما شاء الله . وقد وجدت هذه النظرية أنصاراً وأتباعاً في نهاية القرن التاسع عشر وكونت لها مدرسة كبرى كان من أساطينها الفيلسوف « ريكرت » « Rickert » و « سيمل » « Simmel » و « تروتش » « Troeltsch » و « ديلتاي » « Dilthey » و « هايدكر » « Heidégger » وعلى رأس هؤلاء جميعاً الفيلسوف الكبير « ويندلبند » « Windeband » صاحب المؤلفات المعروفة في الفلسفة وفي فلسفة التاريخ .

والتاريخ في الواقع أهم العلوم التي تتأثر بالعواطف والميول الفردية والجماعية والسياسة العامة للدولة والشعوب ، ويمكن أن نقول إنه مرحلة تمهيدية للسياسة العملية ، ولذلك تحرص الحكومات بجميع أنواعها على الهيمنة عليه وعلى الطرق التي يدون بها هذا العلم ، ومن أهم الطرق المعروفة والتي دونت بها كتب التاريخ الطرق الآتية :

١ — الطريقة الثنائية التيوقراطية في التاريخ ، وهي من أقدم الطرق الشائعة حتى اليوم في تدوين التاريخ . وهي الطريقة الرسمية للكنيسة الكاثوليكية ، ولآباء الكنيسة منذ عهد القديس أوغسطين « ٣٥٤ — ٤٣٠ م » « Augustinus » منظم هذه النظرية وواضعها ، وقد سيطرت على عقول المؤرخين المسيحيين طيلة القرون الوسطى . ولا زالت تسيطر على عقول كتاب الكنيسة حتى اليوم .

والسبب في تسميتها « ثنائية » « Dual » أنها تصورت وجود مملكتين « مملكة الله » « Civitās dei » ومقرها السماء ، و« مملكة الشيطان » « Civitas terrena or diaboli » ومقرها العالم السفلي أو الأرضي ، ورئيسها « الشيطان » ، وهي دولة معادية للخالق وفي حرب مستمرة مع أنصار الله . وقد تأسست هذه الدولة بسقوط لوسفر Lucifer من السماء إلى الأرض ، وكان « قابيل » « Kain » قاتل أخيه « هابيل » أول مواطن في هذه المملكة ؛ لأنه استجاب داعي « ابليس » فقتل أخاه ، وهو بهذا أول قاتل على وجه الأرض . وأما « هابيل » « Abél » المقتول فإنه من مواطني مملكة الله . إذ غفر الله له الخطيئة التي ارتكبها آدم وشمله بعفوه ورحمته وأودعه مملكته في السماء .

ودولة « إبليس » على سطح الأرض قائمة ولا زالت تحاول بسط نفوذها على ممالك الكرة الأرضية ، وكانت أولى الدول التى استجابت نداءه دول آسية والقيصرية اليونانية — الرومانية . وقد تمكن إبليس بفضل أساليبه المعروفة فى الإغراء والهيمنة على العقول من السيطرة على عقول حكام هذه الدول إلى أن ظهر « المسيح » الذى جاء لإنقاذ البشرية وإعادة مملكة الله على هذه الأرض ولرفع « الخطيئة » عن أعناق البشر . فأبى أعداء الله إلا اجابة دعـــوة إبليس ، وقد انتقلت دعوة المسيح إلى الكنيسة فهى التى ترعاها وتدافع عنها وتسعى لتأسيس مملكة الله من جديد ونشر مبادىء الله بين المذنبين .

وقد قسمت هذه النظرية البشر أفراداً وجماعات إلى طائفتين : طائفة « أبناء الله » وهى التى آمنت بالله وعملت وفق أحكامه وأوامره وسعت لنشر مبادئه بين الأمم الأخرى ، وهى تحب الأمن والسلام وترجو العافية فى كل مكان وتبتغى حياة الاستقرار ونشر المحبة ، وطائفة « أبناء إبليس » أو « أبناء الشيطان » وهى التى استجابت لدعوة الشيطان وتحزبت له وتجندت فى صفوفه ، وهى قلقة مضطربة لايستقر لها قرار ، تريد نشر الفوضى والتخريب والنزاع فيما بين البشر وسفك الدماء ، شأنها فى ذلك شأن سيدها الشيطان الذى يحاول بكل ما عنده من حيل ووسائل ، العمل على تقويض « مملكة الله » ومســـاعدة أعمال « الدجال » « Antichrist » وتحبيذ فعله ومحاربة « الكنيسة » وتشجيع « الخطيئة » ؛ غير أن نجاحه هذا وقتى وستزول مملكته فى النهاية وينتصر جنود الله . وعندئذ يكمل التاريخ البشرى وتسود المحبة كل الشعوب ، وتتفق الخطيئة وتشمل رحمة الله عباده المؤمنين .

فالغاية من هـذا التطور التاريخى وفق هذه النظرية مرور البشرية فى هذه الأدوار الحرجة التى يكون فيها المؤمن كالقابض على جمرة النار فيمتحن الله فيهـا عباده ، إلى أن تتداعى مملكة إبليس فيحصـل « أبناء الله » على شرف « المواطنة فى مملكة الأب » ولا يتحقق هـذا الهدف إلا إذا دان الإنسان بمبادىء الكنيسة ، واعتبر كل ما هو موجود على سطح الأرض زائلا لايدوم ، وإن الدوام لله ، وإن الأموال واسطة للقربى من مملكة الله ، فيجب التصرف فيها وفقاً لأوامره وللأحكام التى وضعتها الكنيسة ، يشمل ذلك الأفراد والجماعات .

وتسرى هذه الأحكام على الدول خاصة ، وعلى الحكام أمناء الله على العباد ، لأن وظائف الدولة هى وظائف عالية ، وبيدها مقدرات ملايين الناس ، وقد اختار الناس بمجرد حريتهم أمثال هذه المؤسسات الاجتماعية لخدمة مصالحهم وحقوق الله ، فلا يجوز للحاكم أن يحيد عنها ويتعداها فتصبح الدولة دولة من الدول الممثلة لإرادة الشيطان ويكون الحاكم طاغية من الطغاة « Tyran » فيحرم من حق المواطنة فى مملكة الله . وتصبح الدولة التى يديرها آلة من آلات الشيطان مسخرة لتنفيذ أحكامه . والضمان التعاون مع « أبناء الله » وتنفيذ مبادئه يجب الأخذ بناصر الكنيسة ورجال الدين أولياء الله على هذه الأرض .

ومن هذه النظرية استمد البابوات سلطانهم وحاولوا فرض إرادتهم فى القرون الوسطى على الحكام الزمنيين ، باعتبار أنهم يمثلون السلطات الشرعية التى هى أرفع السلطات وأنهم ينفذون أوامر الله بين الناس ، وأن ذلك لا يعنى العبودية ولا الخضوع لإرادة الكنيسة التى لا تعرف الرق بل تعنى التسليم عن اختيار ، والإيمان المحض مع الشعور بما يترتب على ذلك من مسئوليات . وقد كانت هـذه النظرية مصدر نزاع بين الحكام الذين كانوا يرون فى هذه العقيدة سبباً من أسباب التدخل فى الأمور الدنيوية التى يجب أن يبتعد عنها رجال الدين ، والتى تتنافى مع مبادىء الدين نفسه .

إن هذا التفسير للتطور التاريخى هو تفسير دينى ، وهو تفسير يتقارب فى الأفكار العامة مع تفاسير رجال الأديان وإن كان يتعارض مع التفاصيل ومن له مصدر هذه السلطات . ويتقارب « البروتستانت » فى التفسير التاريخى مع هؤلاء على الرغم من اختلافهم عن الكاثوليك فى سلطة « البابوات » ورجال الدين . وربما كانوا أقرب إلى نظرية « أوغسطين » من إخوانهم الكاثوليك .

وممن دافع عن هذه النظرية المؤرخ « بوسويه » « Bossuet » « ١٦٢٧ — ١٧٠٤م » فى كتبه التى ألفها فى التاريخ ؛ فعنده أيضاً أن نهاية التاريخ هى تحرر الإنسانية من « الخطيئة » وإقامة حكومة الله . وقد اعترف فى كتبه بوجود سلطتين فى العالم سلطة

الـكنيسة وسلطة الدولة ، وسلطة الـكنيسـة بالطبع هى العليا لأنها تمثل مبادىء الله على هذه الأرض . وعالم آخر إيطالى هو « ڤيشو » « L Vico » « ١٦٦٨ — ١٧٤٤ م » وهو صاحب أبحاث قيمة فى التاريخ ؛ وعنده أن تطور كل أمة يخطو خطوات ثلاثا « ثيوقراطية » و « مرحلة القوة والبطولة » و « المرحلة الإنسانية » . حيث تسود فيها قوانين الله وشريعة العقل ، ويسير الله فى كل هذه المراحل وعند جميع الأمم هـذه الأدوار بحكمته وإرادته ويربط فيما بينها ؛ ولذلك يسير التاريخ على الرغم مما نراه من استقلال ظاهرى متضامناً يؤثر بعضه فى بعض ، والـكنيسة هى أعلى مؤسسة ثقافية ظهرت فى التاريخ البشرى ، وسيكون النصر لها . وهنالك مؤسسات ثقافية أخرى ظهرت عند البشر هى الثقافة العبرانية واليونانية والرومانية وقد أزالتها الحضارة المسيحية سيدة الحضارات .

وقد صيغت هذه النظرية المسيحية للتاريخ فى أسلوب واضح حديث عند بعض المؤرخين مثل دمستر « J . M . de maistre » « ١٧٥٤ — ١٨٢١ م » وهو إدارى وفيلسوف فرنسى ، وكان يمثل الـكاثوليـكية المحافظة فى نظريته عن الدولة وأثناء ممارسته للسياسة . وكان يرى أن سـلطة البابوية فوق سلطات الملوك والحـكومات ، ويجب أن تـكون كذلك لأنها تمثل إرادة الله التى هى فوق كل إرادة ، والفيلسوف فون جورس J. J. Von göures ١٧٧٦ — ١٨٤٨ م ، وهو الـكاتب السياسى الذى أيقظ الروح الـكاثوليكية وصـبغها بالصبغة « الرومانتيكية » ودعا وهو فى فى بلاط الملك « ليدويك » ملك « باڤاريا » إلى إرجاع السـلطة المقدسة العليا إلى مكانتها السابقة وإلى الاعتراف بها على أنها أهم مرجع يجب الركون إليه فى حل المشكلات .

وقد اصطبغت هذه النظرية الدينية بصبغة « رومانتيـكية » صبغها بها الـكتاب الذين تأثروا بالمذهب « الرومانطيق » أمثال « فريدريك شـليكل » « Fr . Schlegel » « ١٧٢٢ — ١٨٢٩ م » فى كتابه « فلسفة التاريخ » . وهو من كبار أصحاب المذهب « الرومانطيق فى ألمانيا » وبالمس « Balmes » « ١٨١٠ — ١٨٤٨ م » والفيلسـوف البروتستانتى روشـول « Rocholl » و « كروب » « grupp » .

وكان من نتائج تقدم العلوم الطبيعية وشيوع الآراء العقلية التى تطرد كل ما لا يقبل التصديق عن العقل « Aufklärung Philosoplis » ولا تؤمن إلا بالتجربة وشيوع المذاهب المادية ومحاولة العلماء تطبيق القوانين والنتائج التجريبية « Empiri » حتى على العلوم العقلية البحتة . وقد قوت الثورة الفرنسية هـذه الحركة وساندتها نظرية داروين المعروفة وما أعقبهـا من آراء طبقت فى التاريخ وفى علم الاجتماع وعلم النفس .

وكانت الطرق التاريخية المعروفة تعتمد إلى درجة كبيرة فى سرد الحوادث على ذكر « الأفراد » الموهوبين الذين كانوا يصنعون التاريخ على حـد قول أكثر المؤرخين . وقد خالف القائلون بالمذهب المـادى فى التاريخ هذا الرأى ، وأشادوا على العكس بفعل الجماهير وأثرها العظيم فى تكوين الأفراد . وقد تولد من هذه النزعة المادية التى دخلت التاريخ ما يعرف بالمذهب المادى فى التاريخ .

والفكرة المادية قديمة جداً فى الواقع ؛ فهنالك أناس نادوا بها فى عالم اليونان مثل « Leucippus van Abdera » وكان من المعاصرين للفيلسوف « Anaxagoras » « ٥٠٠ قبل الميلاد » والذى كان من تلاميذه « ديمقريط » « Demokrit » . ومثل « أبيقور » الذى أرجع أصل كل شىء إلى المادة . وكان هنالك جماعة آخرون .

غير أن المسيحية وقفت هذه الحركة المادية ، وعرقلت انتشارها طيلة القرون الوسطى وما تلا ذلك إلى أن كتبت لها العودة ثانية فى القرن الثامن عشر الميلاد ، فأخذت توجد لها أنصـاراً وأعواناً إلى أن شملت جماعة من أصحاب العلوم العقلية ، كالفلسفة والتاريخ ، وقد ظهرت فى التاريخ على شكلين : شكل يقال له « المادية البيولوجية » « the Biological materialism » وشكل يقال له « المادية الاقتصادية » . the okonomicral materialism . « أو « المادية الاجتماعية » . Somialismus materialism . « وأحياناً « الديالـكتيكية المادية » .

(البقية فى العدد القادم)

مجواد على